

رَحَلَهُ الْعَرَبُ
فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ
شَيْخ
(البلاد العربية السعودية ١٩٠-١٩٧٢م)

بقلم : الدكتور منصور إبراهيم الحازمي

تمهيد :

لا تزال الرحلة ، حتى في عصرنا هذا — عصر الطائرات والصواريخ — مصدر متعة وعلم وثقافة ، وإن فقدت ذلك البريق الذي كان يحوطها في الماضي ، وانقرضت الى عنصر الخيال والمغامرة ، حينما كان العالم متباعدا مجهولا ، ووسيلة الانتقال بدائية محدودة . ولكن الانسان رحال بطبيعته ، توافى أبداً الى المعرفة واكتشاف المجهول . فإن لم تتيسر له أسباب الرحلة ، أنصت الى الذين أوتوا الحظ في المشاهدة والتجوال . وليس من رأي كمن سمع .

ورثت الأمم حافل بالرحلات ، أبقي الزمن على بعضها ، فوصلتنا مدونة نقرأها ونلذذ بها ، ونرى فيها صورا صادقة لحياة الانسان القديم ، وصفحات من جهاده وأخلاقه ومعتقداته . هكذا رأينا العالم القديم من خلال ما دونه هيرودوت ، في تاريخه الشهير ، عن مشاهداته في مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وایران ، وما سجله بلوتارك وبوليوس قيصر وناسيت وبطليموس ، من وصف الأصقاع والمواقع وأخبار الأمم والشعوب .

أما العرب فقد برزوا الأمم التي سبقتهم فيها خلفوه من آثار في ميدان الرحلات . ساعدهم على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وازدهار في التجارة والزراعة ، وتقدم في الحياة العلمية والثقافية ، هذا الى جانب عامل مهم آخر وهو العامل الديني ، الذي يقضي بشد الرحال الى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المقدسة . والمكتبة العربية تزخر بعشرات الرحلات المطبوعة والمخطوطة التي تؤكد اهتمام العرب الأوائل بهذا اللون الطريف من الكتابة ، وتدل على حيوية ونشاط فائقين^(١) .

ومع أهمية الرحلة وخطورتها وغناها في التراث العربي والإسلامي ، فإنها لم تحظ بالاهتمام الكافي من جانب النقاد والباحثين المحدثين . وقد نبه الى ذلك مرارا الأستاذ حمد الجاسر في مجلته : « العرب » ، ووجه الأنظار ، بما كان ينشره من نصوص ودراسات ، الى أهمية الرحلة في الكشف عن حلقات تكاد تكون مفقودة بمجولة في تاريخ الجزيرة العربية^(٢) .

وللدكتور شوقي ضيف كتيب عن الرحلات ، لخص فيه أهميات الرحلات العربية ، مثل ابن جبير وابن بطوطة والمقدسي . وقد صنع صنيعه الأستاذ جورج غريب في كتابه : « أدب الرحلة » ، غير أنه آثر أمين الريحاني بالجزء الأعظم من الصفحات . وكذلك فعل الدكتور

حسني محمود حسين في كتيبه : «أدب الرحلة عند العرب» ، الذي نشر في سلسلة المكتبة الثقافية المصرية ، فقد اكتفى بالحديث عن ابن جبير وابن بطوطة ، وأضاف اليها ابن خلدون ورفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق^(٣) .

ولا شك أن هذه الجهود قيمتها ، ولكنها لا تكفي ، ومعظمها لا يتجاوز منهجها التعريف أو التلخيص والعرض ، ولا تتكافأ مع ذلك الانتاج الضخم الذي خلفته العقلية العربية طوال القرون الماضية . ولعل أعظم كتاب اطلعت عليه في هذا الميدان هو كتاب المستشرق الروسي المعروف كراتشكوفسكي : «تاريخ الأدب الجغرافي» . إذ أنفق في جمع مادته وتأليفه سنوات طويلة . وتتبع فيه الرحلات العربية منذ بدايتها حتى القرن الثامن عشر الميلادي . ويتميز منهجه بالدقة العلمية ، سواء في إحاطته بمادة موضوعه ، أو في طريقة عرضه لها ومناقشتها وتحليلها . عل أن كراتشكوفسكي لا يعني بكلمة «أدب» ، التي جاءت في عنوان كتابه ، المصطلح النقدي لهذه الكلمة ، بل يعني بها مدلولها العام . ويتسع هذا المدلول لثراث الأمة في جميع جوانبه الابداعية وغيرها . وبدل هنا على كل ما أنتجته العقلية العربية والإسلامية في أدب الرحلات الجغرافية بصورة خاصة .

والرحلة ميدان واسع يتنافس فيه التاريخ والأدب ، وربما فنون وعلمون كثيرة أخرى لا تدخل تحت حصر . ولكنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص ، أو أقرب الى الفن الأدبي .

وكنت أبحث عن تحديد لأدب الرحلة ، بمعناه الضيق ، فلم أجد ، فها اطلعت عليه . ما يشفي الغلة . ولعل العرب ، وقد خلفوا لنا هذا التراث العظيم من كتب الرحلات ، لم يفكروا في إلحاقها بدائرة الأدب الخالص ، ومن ثم لم يعتوا بوضع القواعد لها ، كما فعلوا في فنون القول الأخرى ، من شعر وخطب ورسائل . وهم كذلك قد أهملوا فن القصة على الرغم من اعترافهم بفن المقامة ، وعلى كثرة ما خلفوه من تراث قصصي .

وربما كان للقدماء العذر في اغضائهم عن الرحلة ، وعدم اعترافهم بها كفن أدبي — فالرحلة ، كما ذكرت ، مزيج من فنون شتى ، وتختلف باختلاف كتابها وأغراضهم منها . فرحلة ابن جبير ، على سبيل المثال ، كتبت في شكل مذكرات يومية ، تروي ما شاهده المؤلف في طريقه الى الأراضي المقدسة ، لأداء فريضة الحج ، وعودته منها^(٤) . بينما اهتم ابن الجاور ، في كتابه : «تاريخ المستبصر» ، بما رآه في جنوبي الجزيرة العربية والجزاز الأوسط من المظاهر الشعبية المختلفة ، بالإضافة الى اهتمامه بوصف المقاطعات والطرق والمسافات^(٥) . أما ابن بطوطة فقد تأثر تأثراً كبيراً بالمعتقدات السائدة في المغرب ، فكان يهتم اهتماماً ملحوظاً بأخبار الأولياء والدراويش وما يحكى عنهم من خوارق وكرامات^(٦) . وغلب الطابع الأدبي على رحلة ابن معصوم الموسومة بـ : «صلوات الغريب وسلوة الارب» ، إذ انتمت الى السيرة الذاتية ، مع الاستطراد أحياناً الى بعض الموضوعات الأدبية ، وقد كتبها في وصف رحلة أسرته من المدينة المنورة الى الهند^(٧) .

تلك نماذج قليلة لاختلاف الرحلات ، وتباين مناهجها واتجاهاتها وأشكالها . لهذا فقد

قسمها بعض الباحثين حسب موضوعاتها ، فعُدّ للرحلات خمسة عشر نوعاً ، هي :

(١) الرحلات الحجازية ، (٢) الرحلات السياحية ، (٣) الرحلات الرسمية ، (٤) الرحلات الدراسية ، (٥) الرحلات الأثرية ، (٦) الرحلات الاكتشافية ، (٧) الرحلات الزيارية ، (٨) الرحلات السياسية ، (٩) الرحلات المقامية ، (١٠) الرحلات الفهرسية ، (١١) الرحلات العلمية ، (١٢) الرحلات الدليلية ، (١٣) الرحلات الخيالية ، (١٤) الرحلات السفارية ، (١٥) الرحلات العامة^(٨) .

ورغم ما في هذا التقسيم من فائدة وراحة للباحث ، إلا أنه لا يخلو من اعتساف وقصور عند التطبيق . فقد تتجّمع في الرحلة الواحدة أنواع عدة . فرحلة ابن بطوطة ، مثلاً ، حجازية . سياحية . اكتشافية ، سفارية ، زيارية ، علمية — وهكذا^(٩) .

وهناك رأي آخر في تصنيف الرحلات العربية . لعله أكثر دقة وشمولاً وطواعية عند التطبيق . وهو الرأي الذي يعتمد على صلة الرحلة بكتابها . فهي إما «ذاتية» ، تنهـم بكل ما يقع للمؤلف من حوادث وأحوال أثرت في نفسه وفكره ووجدانه ، وإما «موضوعية» تركز على تسجيل الأشياء مجردة عن الذات . ومن النوع الثاني ما كتبه الجغرافيون العرب في علم المسالك والممالك . فقد عنوا بقياس المسافات والطرق ووصف البلدان من النواحي الزراعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية وغير ذلك . فالرحلة «الموضوعية» بهذا المفهوم ، أقرب إلى التقرير العلمي ، الذي يهتم صاحبه بالدقة العلمية وإيراد التفاصيل ، دون العناية بالأسلوب الأدبي ، أو التعبير عن الذات^(١٠) .

ومع وجاهة هذا الرأي ، وقربه إلى النظرة النقدية في تفسير النصوص ، فإنه لا يخلو من ثغرات . ذلك لأنه غالباً ما يمتزج العنصران : الذاتي والموضوعي في الرحلة الواحدة . بل إن كثيراً من الرحلات العربية قد تبدأ كترجمة ذاتية لحياة الرحالة نفسه ، ثم لا تلبث أن تتحول إلى معجم يترجم فيه المؤلف لشيوخه والعلماء الذين التقى بهم ، أو إلى مختارات أدبية ، قد تفيد الباحث في معرفة الذوق العام لذلك العصر^(١١) .

ومن ناحية أخرى ، فقد لاحظنا أن لاتجاه الرحالة وثقافته وظروف عصره شأنها معها في توجيه الرحلة . وصبغها باللون الذي ينسجم مع النزعة الذاتية والظروف الموضوعية العامة . ونضرب مثلاً على ذلك باهتمام العلماء بالجزيرة العربية أثناء عصر التدوين ، فقد كانوا في حاجة إلى جمع اللغة ووضع قواعدها ورواية التراث الأدبي من أفواه القبائل — فلما استقرت أصول اللغة وجمع التراث ، لم يعودوا في حاجة إلى شد الرحال وتكبد المشاق . وكذلك نرى عناية الرحالة المتأخرين بمشائخ الطرق الصوفية والأولياء والدراويش والصالحين ، وذلك لغلبة الجُمود على الفكر الإسلامي في العصور المتأخرة ، ونفسي الجهل وأعمال الدجل والشعوذة بين طبقات الأمة^(١٢) . وقد رأينا أن من الرحالة من أملت عليه اهتماماته أو دراساته الخاصة العناية بجانب معين دون الجانب الآخر . فالمقدسي قد اهتم اهتماماً شديداً بالسكان وأحوالهم^(١٣) . وناصر خسرو كان معنياً بآراء ومواقفه وانطباعاته^(١٤) ، كما اهتم الزمخشري بالمواضع في الجزيرة العربية وماله علاقة بالقرآن والسيرة النبوية^(١٥) . الخ ...

ومثل هذا النوع أو التلويح في كتابة الرحلة ، لا يزال مشاهدا حتى اليوم في الرحلات الحديثة التي قام بها أصحابها إلى البلاد العربية السعودية منذ مطلع هذا القرن حتى الوقت الحاضر . فمنهم من قام برحلة من أجل أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة . فهو لذلك معنى بوصف الطريق ومواضع المياه واجراءات السفر وذكر المناسك والآثار الإسلامية التي شاهدها . ومنهم من قام برحلة لأغراض قومية سياسية . وأشهرهم أمين الرغائي في كتابه : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» . ولم يكن الرغائي بطبيعة الحال مهتما بوصف طريق أو مشاهدة أثر . بل كان مشغولا في الدرجة الأولى بالشخصيات التي كان يقابلها ويتحدث إليها . ولاسيما الشخصيات السياسية . ومن الرحالة أدباء وصحفيون ساقطهم الصدفة أو المناسبة — فهم لذلك يتصيدون الأخبار وتجمعونها ويكتبون ، فيما يشبه التقرير الصحفي ، عن مظاهر النهضة التي وصلت إليها بلادنا في العهد السعودي الزاهر .

ولكن الرحالة مها كانت مشاربهم وأهواؤهم ، فانهم لا يستطيعون إغفال جانب الفضول في أنفسهم ، ومن لم نراهم ، على تعدد أغراضهم واتجاهاتهم . يكتبون القليل أو الكثير عن العادات والتقاليد التي شاهدها واسترعت انتباههم . وقد تكون هذه العادات والتقاليد سلوكا معينا أو طريقة في المأكل أو اللبس أو المشرب . وقد كتب بعضهم عن لغة أهل المدن ولغة بعض القبائل . كما أورد بعضهم نصوصا للأغاني الشعبية والبدوية التي سمعها . إلى غير ذلك من المظاهر الطريفة التي يراها الرحالة جديرة بالتسجيل .

وعلى هذا النمط تسير الرحلة . فنا مختلطا لا يجمع شتاته سوى صاحب الرحلة . وللكاتب الحرية أن يكتب ما يشاء ، وبالطريقة التي يريدها . ومن هنا فإن الرحلة أقرب في الحقيقة إلى المذكرات التي يدون فيها كاتبها ، وبشكل عفوي . ما حدث له أو سمعه أو شاهده في فترة معينة من حياته ^(١) . والرحلة فترة محددة في حياة إنسان ، وهي غالبا ما تبدأ بتاريخ وتنتهي بتاريخ . وقد تستمر أياما أو شهورا أو سنوات . غير أن بعض هذه الرحلات قد تنحرف عن الطريقة العفوية إلى طريقة البحث العلمي ، الذي نلصق من ورائه الجهد ورشح الجبين . هكذا نرى رحلة محمد حسين هيكل : «في منزل الوحي» التي بلغت مئات الصفحات ، بينما لم يملك صاحبها سوى بضعة أسابيع . ومن الواضح أن المؤلف قد أعد مواد كتابه قبل قدومه إلى الحجاز بفترة طويلة وأمثال هذه الرحلات قد تشبع نهم القارئ المتطلع إلى العلم والمعرفة ، ولكنها لا تشبع احساسه الفني ، إذ هي غالبا ما تفقد روح المفاجأة والعفوية ، وتلاشى فيها الجوانب الانسانية للكاتب إلى حد كبير .

وقليلة هي الرحلات التي يطلق فيها الكاتب نفسه على سجيته دون تصنع أو إعداد . ومن أبرز ما قرأت من هذا النوع رحلة الأديب إبراهيم عبد القادر المازني التي قام بها إلى الحجاز سنة ١٩٣٠ م . ففي هذه الرحلة الكثير من شخصية المازني . في عفوها . وانطلاقها . وسخريتها . وتمردا . وهو لا يكاد يستتر على شيء . ولا يكتب كما يكتب الصحفي أو المؤرخ ، بل يرسم بقلمه ويغتنق في صوره . دون أن يتكلف ذلك . بل هي فيه سليقة الشاعر وطبيعة الأديب . وكثيرا ما يعتمد إلى الأسلوب القصصي . ويستخدم الحوار استخداما بارعا . فإذا أنت أمام

لوحات فنية رائعة . او امام شريط متحرك نابض بالحياة . وواضح ان المازني في رحلته هذه لم يقصد الى تقديم معلومات تاريخية أو آثارية أو اجتماعية ، كما فعل ابراهيم رفعت في «دراة الحرمين» ، أو البتوني في «الرحلة الحجازية» ، بل قصد الى امتناع القارىء وتسليته . وهذا هو الهدف الذي يتوخاه القصصي أو الأدب بصورة عامة .

ويبين مما قدمنا أن للرحلة وجوها مختلفة تجذب دارس الأدب أو الجغرافي أو المؤرخ أو الباحث الاجتماعي ، أو غير هؤلاء . وكل ينظر الى الرحلة من زاويته الخاصة . هذا ، فقد حاولت عند جمعي لمادة البحث ، أن التقط من بين الركام المتداخل في الرحلة ما يهم دارس الأدب في المقام الأول . وكنت أطمح في العثور على شيء مما كتب الرحالة عن أدبنا في العهود الثلاثة : التركي والحاشي والسعودي . ولكن قلة ما عثرت عليه في هذا الموضوع جعلتني أنصرف الى ما كتبه عن الحياة الثقافية بصورة عامة . على أن ما سجلوه من مظاهر الحياة الاجتماعية . بشئ صورها وألوانها . يستحق التنويه . لأنه يعبر عن التطور التاريخي الذي مرت به بلادنا خلال فترة تزيد على السبعين عاما .

الرحلات الحديثة : بواعثها وأنواعها

صلات العرب بالجزيرة العربية قديمة منذ فجر الإسلام . بل إنها تمتد الى العصر الجاهلي حينما اندفعت أفواج من أبناء الجزيرة العربية لتعشب خارج حدود وطنها الأم — في الشام والعراق ، ولكن العرب بعد الفتح الإسلامي تغلغلوا في أعماق الأمصار البعيدة ، ولم يكتفوا بالعيش على حدود البادية . لقد حملوا الآن رسالة جديدة جعلتهم السادة بعد أن كانوا قانعين بالتبعية لفارس والروم .

أعطى الإسلام للجزيرة العربية أهمية خاصة . جعلتها مطمح الأنظار في شتى العصور ، فهي مهد الإسلام من ناحية . ومنبع اللغة التي نزل بها القرآن من جهة أخرى . وطبيعي أن يحتل الحجاز . حيث الأماكن المقدسة ، المكانة الأولى في نفوس المسلمين . وأن يكون الحج أهم باعث يدفعهم الى الرحلة . وعلى الرغم مما لقيته الجزيرة العربية من إهمال بعد انتقال مركز الخلافة عنها ، فقد ظلت للبقاع المقدسة مكانتها الدينية . واحتلت مكة المكرمة مركزا ممتازا لا يصفها الدينية فحسب بل لدورها الثقافي كذلك إذ كانت وما زالت «نقطة التقاء ومركز تجمع لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية» . ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الأقطار ، وكانت صلة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية ، في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها في مختلف العصور الماضية^(١٧)

فالْحج إذن هو العامل الرئيسي في توجه الكثير من قوافل الرحالة المسلمين الى الحجاز طوال القرون الغابرة : ابن حبير وابن بطوطة وابن الجاوي والعياشي وغيرهم . وقد لاحظ الأستاذ

حمد الحاسر تفوق علماء المغرب العربي على علماء المشرق في هذا الميدان . كما لاحظ عتي الصلات الثقافية التي تربط المغاربة والاندلسيين بالأراضي المقدسة . وهو يعدد الكثير من العلماء المغاربة الذين رحلوا الى الحجاز لنشر العلم وتلقه ، ^(١٨) كما يشير الى ما سجله الشيخ عبد الحي الكتاني من رحلات المغاربة فقد بلغت ستة واربعين كتابا . ويقول ان هناك العشرات من هذه الرحلات لا تزال مخطوطة تحفل بها مكتبات المغرب العامة منها والخاصة .

وهذه الرحلات لا تزال مخطوطة تحفل بها مكتبات المغرب العامة منها والخاصة ^(١٩)

واذا كان احيح ، وربما كذلك الرغبة في طلب العلم ، قد ساعدا على الاحتفاظ بتاريخ المدينتين المقدستين طوال العهد الماضي ، فقد فقدت بقية انحاء الجزيرة العربية مغريات الرحلة فظلت مجهولة لا يلتفت اليها حتى عهد قريب . بل ان الطائف ، على صلاته التاريخية بيده الدعوة وانتشار الإسلام ، وقربه من مكة المكرمة ، قد أهمل الكثير من تاريخه . ذلك لأن الرحالة الذين قدموا لغرض الحج والزياره لم يكن يهتمهم في الغالب سوى المدينتين المقدستين وما يحتم اليها من وصف الطريق وما إليه . فإن تحدثوا عما سوى ذلك فهم إنما يتحدثون في معظم الأحيان عن سماع لا عن خبرة ومعاينة ^(٢٠) . ويمكن القول انه كلما أوغلنا في داخل الجزيرة العربية ازداد جهلنا بتاريخها ، ومن ثم ضعفت الصلة بين تلك المناطق والعالم الخارجي .

ولقد ظل الحال على هذا المتوال حتى اوائل هذا القرن . وليس غرضنا هنا تتبع جميع الرحلات العربية الحديثة الى الجزيرة العربية بشكل عام ، بل أردنا ، كما حددنا في عنوان البحث ، الاقتصار على المناطق التي تضمها حاليا الدولة السعودية . وليس الهدف من التحديد ، سوى التسهيل على الباحث الامام بمجانب الموضوع ، الذي سينبع كثيرا لوفاقت أطرافه على جميع سواحل الجزيرة العربية . والمملكة بعد ذلك تضم معظم أجزاء الجزيرة العربية وأهم وأقدس بقاع فيها . وكثير من رحلات العرب المحدثين الى هذه البقاع ان هي الا استمرار لرحلات أسلافهم في العصور القديمة ، ومن لم فهي رضي الباحث المتطلع الى تحسس الصلات التاريخية العميقة وفحص الروابط المتأصلة في النفس العربية والمقارنة بين القديم والحديث .

وغني عن القول ان المملكة العربية السعودية ، بحدودها الحالية ، لم تكن قد وجدت في مطلع هذا القرن . وهو التاريخ الذي حددناه ليداء البحث . بل ان اسمها الرسمي لم يعلن الا في سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ^(٢١) ، حينما أراد الملك عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله ، أن يعبر عن تلك الوحدة السياسية التي صنعها بجهوده لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ولم بها الأطراف الضعيفة المتناثرة المتحاربة .

كانت تلك الأطراف إمارات صغيرة ، صنعها السياسة ولم تصنعها الحدود الدينية أو اللغوية أو الطبيعية أو الاجتماعية ، وهي مستقلة اسما وخاضعة فعلا للقوى الأجنبية : الحجاز ونجد والاحساء والمنطقة الشمالية تحت سيطرة الأتراك . ونهاية الادارة متضامنة مع السياسة

البريطانية . وبعد الحرب العالمية الأولى ظلت بريطانيا تحرك الأحداث في الحجاز ونهامة . وكان عبد العزيز في هذه الأثناء قد تمكن من استعادة الرياض وضم المنطقة الشرقية والشمالية والجنوبية الى سلطته . ولم يكن توحيد هذه الامارات بالعمل السهل فقد استغرق جهدا مضنيا وكفاحا متواصلا امتد طوال الربع الأول من هذا القرن ، أو من تاريخ فتح الملك عبد العزيز للرياض سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م ، حتى الاستيلاء على الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م . بل ان الجهاد في سبيل توطيد دعائم تلك الوحدة واستقرارها قد امتد الى ما بعد ذلك ، أي الى حين اعلان الاسم الجديد : « المملكة العربية السعودية » في ٢١ جمادي الأولى عام ١٣٥١ هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ م ^(٢٢) . فالرحلات التي انتمت الى احدى هذه الامارات قبل توحيدها ، لم تكن بطبيعة الحال معبرة عنها أو مصورة لواقعها السياسي والاجتماعي والثقافي بعد انضمامها الى الوحدة . فالحجاز ، على سبيل المثال ، في رحلة البنتوني سنة ١٩٠٩ م في عهد الأتراك ، يختلف عنه في رحلة هيكل سنة ١٩٣٦ م في أوائل العهد السعودي . ولا نقصد اختلافا في الطبيعة أو التاريخ أو الآثار ، أو تغيرا مفاجئا في معاش الناس وأخلاقهم وعاداتهم ، ولكننا نقصد اختلافا في طبيعة الحكم الجديد الذي أدخل كثيرا من الإصلاحات الجوهرية على البلاد مما جعلها تستقبل عهدا جديدا لم نعرفه من قبل . ومن أهم هذه الإصلاحات ، كما سنرى فيما بعد ، تحقيق الأمن والنهوض بالتعليم . لقد شغل البنتوني مشكلة الأمن ، كما شغل الكثيرون غيره من رحالة العصور الغابرة . ولكن هذه القضية لم نعد تشغل هيكل بعد أن تحقق الأمن وزالت المخاوف في العهد السعودي الجديد . وهذا يدل على ضرورة التمييز بين العهود السياسية المتباينة عند دراستنا للرحلات العربية الى المملكة . على ألا يفتح هذا التحديد السياسي الى التكلف أو التصف ، إذ لا بد من التمييز بين ما يقبل التغيير فجأة كقضية الأمن وبين ما يحتاج في تغييره أو تطويره الى عامل الزمن ، كأمور التربة والتعليم والقضايا الاجتماعية الأخرى .

ورحلات العرب في هذا القرن الى الحجاز قد صورت ثلاثة عهود سياسية مختلفة : العهد التركي الذي انتهى بالثورة العربية سنة ١٩١٦ ، والعهد الهاشمي من سنة ١٩١٦ الى تاريخ استيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز سنة ١٩٢٤ م ، والعهد السعودي الذي يبتدىء في الحجاز منذ ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر . أما العهد الأول فقد مثله في هذا البحث رحلتان : ^(٢٣) رحلة ابراهيم رفعت باشا المسماة : «مراة الحرمين — أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية» وهي رحلات أربع قام بها الكاتب في مواسم الحج في الأعوام : ١٩٠١ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٨ ^(٢٤) . أما الرحلة الثانية فهي رحلة محمد لبيب البنتوني التي قام بها الى الحجاز مرافقا للخديو عباس حلمي في أواخر عام ١٩٠٩ م ، في حجة سنة ١٣٢٧ هـ . وكانت رحلات ابراهيم رفعت في أواخر إمارة الشريف عون الرفيق ثم إمارة الشريف علي باشا ، بينما صادفت رحلة البنتوني بداية إمارة الشريف حسين باشا ابن علي سنة ١٣٢٧ هـ .

أما العهد الهاشمي فقد مثله ثلاث رحلات : رحلة الامام محمد رشيد رضا التي قام بها

الى الحجاز في اوائل ثورة الحسين على الأتراك سنة ١٩١٦^(٢٥) ، ورحلة غير الدين الزركلي : «ما رأيت وما سمعت» سنة ١٩٢٠ م ، ورحلة أمين الرضائي : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» سنة ١٩٢٢ ، والرحلتان الأخيرتان وقعتا ، كما نرى في أواخر العهد الهاشمي وقبل استيلاء السعوديين على الحجاز بسنوات قليلة . ورحلة الرضائي لم تقتصر على الحجاز بل شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية : نجد وعسير واليمن والحج والنواحي النع الحمية والبحرين ، وكذلك العراق .

وفي أثناء العهد السعودي الحالي كثرت الرحلات وتتنوع ، ويكفي أن نذكر منها في هذا المقام : رحلة ابراهيم عبد القادر المازني : «رحلة الى الحجاز» ، سنة ١٩٣٠ م ، ورحلة الأمير شبيب ارسلان : «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف» ، حوالي سنة ١٩٣٠ م ، ورحلة محمد حسين هيكل : «في منزل الوحي» ، سنة ١٩٣٦ م ، ورحلات عبد الوهاب عزام التي قام بها الى الحجاز وبعض مناطق المملكة الأخرى في أوقات متفرقة ابتداء من سنة ١٩٣٧ م ، ورحلة أحمد حسين : «مشاهداتي في جزيرة العرب» ، سنة ١٩٤٨ م ، ورحلة الدكتور بنت الشاطي : «أرض المعجزات — ورحلة الدكتور محمد بدیع شريف : «في مهبط الوحي» ، سنة ١٩٦٣ م^(٢٦) . ومما تجدر الإشارة اليه ، ان معظم هذه الرحلات التي ذكرنا في العهود السياسية الثلاثة ، قد توجهت الى الحجاز ، والى المدينتين المقدستين بشكل خاص . فهي من هذه الناحية إنما تكمل تلك السلسلة الطويلة من رحلات «الحج والزيارة» التي عرفها الأسلاف من المسلمين . وقل من تجاوز منهم حدود الحجاز الى المناطق الجاورة الأخرى ، أو من جمع بين أداء الفريضة الدينية وأداء الواجب العلمي في الكشف عن الحقيقة أو استكشاف المجهول . ولم يقدم على هذه المغامرة سوى رجل واحد ، لظروفه الخاصة ، هو تلميذ الرحالة الغربيين في هذا الجانب — أمين الرضائي .

أما الذين قاموا بزيارة بعض المناطق في نجد أو الأحساء أثناء العهد السعودي ، مثل أحمد حسين وبنت الشاطي ، فقد فعلوا ذلك لأغراض صحفية أو سياحية ، فجاءت كتاباتهم مطابقة لأغراضهم .

والحقيقة أن إحصاء الرحالة العرب عن اقتحام مجاهل الجزيرة العربية قبل العهد السعودي ، يمكن رده الى عدة أسباب أهمها اضطراب الأمن من ناحية وانعدام الحافز من ناحية أخرى . ولم تكن حالة الأمن في الحجاز ، في العهدين التركي والهاشمي ، بأفضل منها في المناطق الأخرى . ولكن توفر الحافز — وهو هنا الحافز الديني — يعمل للمغامرة معنى سامياً ترخص في سبيله الأموال والأرواح . أما ما عدا المدينتين المقدستين فلم يكن هناك من الأسباب ما يدفع الرحالة العربي الى الضرب في القياق وتحمل المشاق والتعرض للأخطار . وذلك عكس ما نراه عند الرحالة الغربيين الذين جابوا أنحاء الجزيرة العربية منذ القرن السادس عشر . وتحملوا في سبيل أهدافهم — علمية أو سياسية استعمارية — الكثير من الأذى ، بل وتجرع بعضهم غصص الموت — لقد توفر لديهم الحافز الى غوص المغامرة^(٢٧) .

ولم يستأثر الحجاز بالمركز الديني محسب ، بل كان قطب الرchy في السياسة العربية منذ اوائل هذا القرن . ولاسيما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وعلان الثورة على الأتراك سنة ١٩١٦ . وقد كان ينعقد في أذهان الكثيرين من مفكري العرب خارج الجزيرة العربية الفكرتين : الدينية والعربية معا . فمحاولات الاستقلال عن الدولة العثمانية في اواخر القرن الماضي كانت مقترنة احيانا بالدعوة الى التقارب من الجزيرة العربية : مهد العروبة وموطن الإسلام . كما أن الحديث عن الخلافة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد قد وجه الأنظار الى الجزيرة العربية . والى إمكانية تأسيس خلافة عربية تعيد للإسلام بعده وتحفظ للعرب حقوقهم . ولا شك ان عبد الرحمن الكواكبي ، في كتابه «أم القرى» ، كان متأثرا بهذه الفكرة . فهو يدعو الى جعل مكة المكرمة مركزا لجمعية «أم القرى» التي تضم ممثلين من جميع انحاء العالم الإسلامي . ويرى الكواكبي أيضا أن الجزيرة العربية هي أصلح البلدان الإسلامية لأن تكون مركزا للسياسة الدينية^(٢٨) ، وأن أهلها أكثر الناس ملاءمة للمحافظة على الدين الإسلامي^(٢٩) .

وعندما شبت الثورة العربية سنة ١٩١٦ ، ازدادت آمال العرب ، وظنوا ان حلمهم الطويل في الاستقلال والوحدة قد تحقّق . وازداد تبعا لذلك تعلقهم بالجزيرة العربية والحجاز بصورة خاصة . وقد عبر شعراؤهم وكتابهم عن ذلك بعشرات القصائد والمقالات^(٣٠) . أما أمين الرضائي فقد فضل أن يشد الرحال من أمريكا الى الجزيرة العربية ، بعد أن كان يتابع أخبار العرب ويكتب عنهم وعن تحركاتهم من بعيد :

«رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب ، رافقتهم في اجلات الانكليزية والجرائد العربية ، فكنّت أقوم في ما أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب . وتوقفت في تلك الايام الى زيارة الأندلس . فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشتغل ارفين كتابه النفيس ، فسمعت أصواتا تناديني باسم القومية ومن أجل الوطن . وتدعوني الى مهبط الوحي والنبؤة^(٣١) .

لقد تحققت أمنية الرضائي بزيارة الجزيرة العربية ولقاء حكامها والكتابة عنها وعندهم . كان يهدف ، كما يقول ، الى خدمة القضية العربية عن طريق تعريف حكام الجزيرة بعضهم ببعض ، واتحاد نوع من الوفاق بينهم^(٣٢) . ولكن الوفاق لم يتم . ورجع الرضائي بخفي حنين .

كان الملك عبد العزيز آل سعود في هذه الأثناء يعمل ويخطط بصمت وحكمة . كان يحاهد — بعيدا عن الصخب والأصواء — في سبيل التوحيد وتحقيق تلك الوحدة ، عزيزة المال ، والتي عجزت الآمال والوعود والمفاوضات عن تحقيقها . لقد استطاع عبد العزيز بما حققه من انتصارات حربية وسياسية واصلاحية أن يوجه أنظار العرب مرة أخرى الى الجزيرة العربية ، بعد أن كادت تنصرف ساخطة عنها إثر فشل الحسين وتقسيم البلدان العربية بين الحلفاء . يقول محمد حسين هيكل إنه لما استقر حكم عبد العزيز في الحجاز «بدأ الحديث عن

هذا الفاتح النجدي لبلاد العرب يتردد في صحف الغرب والشرق . وقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالانزوان وبدقة الحكم على الأشياء والأشخاص ، فما كان أشد عجبني حين سمعت من أحدهم «فون فيزل» الألماني المعروف ، مبالغته في الثناء على ابن السعود الى حد نعته إياه بأنه بسمرك الشرق . هذا وكان فون فيزل قد لقي ابن السعود وتحدث اليه وعرف مرامي سياسته (٣٣) .

لقد أسهم الحكم السعودي ، إذن ، بما وطده من دعائم الأمن وما أدخله من تطوير وسائل الحياة الحديثة ، في اجتذاب العديد من الكتاب والمفكرين والصحفيين الى زيارة البلاد السعودية والكتابة عنها . وقد كان كرم الملك عبد العزيز ، رحمه الله ، مضرب المثل ، وكانت الدولة تنفق بسخاء على ضيوفها حتى قبل اكتشاف البترول ، وحين كانت مواردنا ضئيلة محدودة . ومن ناحية أخرى ، فقد كانت تدرك ، ما للاعلام من أهمية قصوى في كشف الحقائق ، ودحض ما يروجوه أعداؤها من أباطيل ، ولا سيما بعد فتح الحجاز مباشرة وتوتر العلاقات بينها وبين بعض الدول العربية المجاورة . ومن هنا فقد قدم الى المملكة من العلماء والأدباء والصحفيين خلال هذه الفترة القصيرة من تاريخها ، ما لم تعهد له البلاد مثيلا في عهودها الغابرة .

يتضح من استعراضنا السابق انه بالإمكان تقسيم الرحلات العربية الحديثة إما حسب المهود التاريخية التي وقعت فيها ، وإما حسب مضامينها والأهداف التي كتبت من أجلها . بل ان الباحث لا يعدم مناهج أخرى ، كأن ينظر مثلا ، في قالب الرحلة أو أسلوبها أو تعبيرها عن شخصية كاتبها ، أو تحري الخطأ والصواب في جانبها التاريخي أو غير ذلك . ونحن مع تسليمنا بأهمية هذه التقسيات والمناهج الا اننا نفضل الأخذ بالتقسيم الموضوعي مع مراعاة الجوانب الأخرى بقدر الأمكان . مدركين مبلغ الصعوبة التي يواجهها الباحث اذا ما حاصرته الحدود والتقسيمات الضيقة . فاذا ما أخذنا هذا في الاعتبار أمكننا أن نميز في نصوص الرحلات العربية الحديثة الى البلاد السعودية بين مجموعات ثلاث :

المجموعة الأولى : رحلات الحج والزيارة

المجموعة الثانية : الرحلات السياسية .

المجموعة الثالثة : الرحلات الصحفية .

وستتناول كل مجموعة من هذه المجموعات بكلمة نبين فيها أهدافها وظروفها التاريخية وخصائصها العامة .

أولا : رحلات الحج والزيارة :

ذكرنا أن الباحث الديني باعث قديم منذ فرض الله الحج على المسلمين وجعل الرحلة في سبيله ركنا من أركان الإسلام : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . كما أشرنا الى أن رحلات العرب المحدثين الى الديار المقدسة ليست الا

استمرارا للرحلات التي كان يقوم بها أسلافهم . وقد عبرت هذه الرحلات عن أهدافها في اسمائها ، اذ كثيرا ما نرى الكتاب يستوحونها من البقاع المقدسة : «مرآة الحرمين» ، «الرحلة الحجازية» ، «في منزل الوحي» الخ ... وكثيرا ما تشرح المقدمة الظروف التي أحاطت بالرحلة والأغراض الدينية التي من أجلها قام المؤلف بتدوين رحلته أو وضع كتابه . يقول ابراهيم رفعت : «كنت ولوعا بالحج مشغوبا باداء هذا الفرض ، متضرعا الى الله أن يوفقني لرؤية بيته الحرام وما اكتنفته من المناسك . فن الله عليّ بالاجابة بعد الاهاية وبارك في دعوتي كما بارك لابراهيم في دعونه الطيبة التي أحيت أمة الى يوم القيامة وعمرت قطرها الجذب ونشرت فيه المدنية الصادقة والشرعة القائمة ، فعينت في سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) رئيس حرس المحمل (قومندان) فرأيت أن نعمة الله علي لا ينبغي بشكرها الا بتدوين رحلتي من أول خطوة فيها الى آخر خطوة ، واخراجها للناس ليتفعلوا بها ويستضيئوا بنورها اذا حجوا الى البيت الحرام أو قصدوا الجزيرة ، فلم أدع صغيرة ولا كبيرة مما رأيت أو سمعت الا قيدتها ...» (٣٤) . ولقد وفق الله المؤلف الى الحج ثلاث مرات أخرى بعد حجته الأولى ، كان فيها أميراً للحج المصري . وكتب مبينا الأسباب التي جعلته يتكبد النفقات الطائلة في سبيل اخراج هذه الرحلات الأربع ونشرها : «ولقد كان من أكبر البواعث على إخراج هذه الرحلات وتكلفت النفقات الباهظة في سبيلها أنها أبين شرح لفرض من فروض الدين وأصدق لسان يصف مهد النبوة ومبعث التشريع وانها لتكشف لك عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والأماكن التي شرفت به حتى كأنك ترى رأي العين» (٣٥) .

أما البتونفي فقد كان مرافقا للخديو عباس الثاني أثناء ادائه فريضة الحج . وكان «متدوبا خصوصيا في خدمة ركابه العالمي مدة سفره الى الأقطار الحجازية» . وبعد عودته أمره الخديو أن يضع شيئا «عن هذه الرحلة المباركة» (٣٦) . ويقول البتونفي : «..... ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوي البصيرة والعرفان ... رأيت أن أضيف الى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة» (٣٧) . ويقول أيضا :

«..... وافي قياما بهذا الواجب الأقدس لم أقصر على الكلام في النقط الدينية ، بل تناول بحثي ما يهم القارئ من المسائل العمرانية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية مما لم يسبقني اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار» (٣٨) .

ويتضح من مقدمتي رفعت والبتونفي انها كانا ينظران الى كتابة الرحلة من الزاوية الدينية فهي بمثابة التعبير عن الشكر لله عز وجل على تحقيق آمينتها في الحج والزيارة ، وتوخي المثوبة على عمل الخير وتبصير المسلم بأموره الدينية . لهذا فانه على الرغم مما كتب عن مكة والمدينة منذ فجر الاسلام حتى العصر الحاضر ، فلا يزالان ينظران الى هذه البقاع على أنها «بجاهل» لا بد من اعادتها اكتشافها ، ولا بد من تضمين الرحلة قدرا كبيرا من المناسك والشعائر المتعلقة بالحج والزيارة . وقد أدى ذلك ، بطبيعة الحال ، الى تضخم الرحلة ونحوها الى ما يشبه كتب السير والمراجع الفقهية والتاريخية . ويكفي ان نلقى نظرة خاطفة على كتاب البتونفي لتبين هذا الانحياز في كتابة الرحلات . فقد بدأه بشهيد استغرق اربعا وخمسين صفحة تحدث فيه عن

الأمة العربية — العالقي وعاد والمعينين وطسم وجديس وعمود وسأ وحميز وملوك العدنانية قبل الاسلام . لم تحدث عن الأمويين والعباسيين والنتار والفرس الخ . وأتى بنيد جغرافية عن الجزيرة العربية وأقسامها وتاريخها الحديث . ولم يكتف بما أورده في تمهيد . بل انه كثيراً ما يقطع تسلسل الحوادث في رحلته ويرجع الى مصادره التاريخية مستطردا . كما يورد بعض المناسك والأدعية أو يفرد لها فصولا مستقلة (٢٩) .

وال جانب الباحث الديني في رحلتي رفعت والبتوني . فهناك الباحث الديني الذي لا ينبغي أن تغفله . فلا ننسى ان كلا المؤلفين إنما قدما الى الحجاز بصفتهما الوظيفية — كان رفعت رئيس حرس للمحمل المصري ثم أميراً للحج ، وكان البتوني متتبداً لمرافقة الخديو مدة اقامته بالحجاز . ومن الطبيعي أن يحرص كل منهما على تنفيذ ما أسند اليه من مهام ، وان يولي الجانب الوظيفي كل عناية واهتمام . ونشبه وظيفة البتوني وظيفته الصحفي المرافق لرئيس الدولة والمكلف بتغطية اخبار سيده وتنقلاته . وقد كتبت الرحلة — كما رأينا — بناء على تكليف رسمي من الخديو نفسه (٣٠) . أما ابراهيم رفعت فقد كان مكلفا ، بحكم منصبه ، بكتابة التقارير المطولة عن رحلته ورفعها الى جهة الاختصاص في الحكومة المصرية .

ولا شك أن الجانب الرسمي في رحلتي البتوني ورفعت قد أثر تأثيراً كبيراً لا على آرائها ومواقفها من حياة الناس في الحجاز فحسب — وهو ما ستحدث عنه فيما بعد — بل على قالب الرحلة نفسها من حيث الشكل . فكثيراً ما نطفي النزعة التقريرية على اسلوب الكاتب ، بل وكثيراً ما نواجه بالتقارير الرسمية المطولة مندسة بين الفقرات والفصول . وقد يكون هذه التقارير أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخ والباحث ، ولكنها ليست كذلك للقارئ العادي ، أو لعلها مبعث املال وسخط لمن ينشد اللذة الفنية أو لمن يبحث عن العناصر الجمالية في الرحلة (٣١) .

وقد تطورت رحلة الحج والزيارة على يدي محمد حسين هيكل تطوراً ملحوظاً ، فهي لم تعد تعنى بتكديس المعلومات أو النقل من المصادر القديمة والحديثة كيفما اتفق ، بل أصبحت تختار منها ما يناسب المقام ، وما يعبر عن الموقف الشخصي للمؤلف نفسه . والحقيقة أن هيكل يختلف كل الاختلاف عن رفعت والبتوني في نزعة التفكيرية التأملية وانجماه الأدبي وافادته من الأساليب الغريبة في المنهج والصياغة . ولم يكن دافع هيكل لزيارة الأماكن المقدسة اداء مناسك الحج والزيارة فقط ، بل كان معنيا بالكشف عن « حقيقة هذه البلاد واختيار القدر اياها للوحي والرسالة على نحو يقع تفكير هذا العصر ، وكان ما كتبه العلماء الأجانب بعيداً عن تناول الظاهرة الروحية التي تغير لها وجه التاريخ منذ أربعة عشر قرناً ، والتي ستظل عاملاً خالداً الأثر في حياة العالم ما كان للقوة الروحية في توجه العالم أثر وسلطان » (٣٢) . فزيارة المؤلف ، إذن ، كانت من أجل غرض معين ، وهو غرض علمي ، يعد استكمالاً لمباحثه في السيرة النبوية عندما كان يعد كتابه فيها عن « حياة محمد » (٣٣) . لقد أراد هيكل أن يسلك سبيل العلماء التجريبيين الذين لا يطمثون إلا الى ما يكتشفونه بأنفسهم ويخبرونه بحواسهم . فالقراءة لا تغني عن التجربة والمعاينة : « ... شعرت آخر الأمر بأنني سأظل ينقصني جوهر ما أبحث

عنه اذا أنا لم أذهب الى بلاد النبي العربي بنفسي ، ولم أقف حيث وقف في أدق ما مر به أثناء حياته ...» (١١)

كان هيكلاً دقيقاً في رسم خطة البحث لرحلته وتحديد ما يريد منها ، فجاءت هذه الرحلة ، على ضخامتها ، واضحة المعالم . مترابطة الأجزاء الى حد كبير . وأثار النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة متفرقة في مناطق متعددة من الحجاز ، استطاع المؤلف أن يتتبع معظمها وأن يربط بعضها ببعض برباط دقيق من الصنعة الفنية . وسيله الى هذا الربط بين الحقائق التاريخية طريقة التأمل الذاتي واستحضار صور الماضي حيث تمثلها أمامنا شريطاً يتحرك نشاهده بأعيننا ونشغل بأحداثه ومواقفه ونشارك فيه بعواطفنا وأفكارنا .

ثانياً : الرحلات السياسية :

لا تكاد تخلو رحلة من جانب سياسي ، ولكن الرحلة العربية الوحيدة التي يغلب عليها الطابع السياسي من أولها الى آخرها هي رحلة أمين الريحاني الشهيرة : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» ، وقد طوف فيها بلداناً عربية كثيرة في الجزيرة العربية ، بادئاً بالحجاز في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٢٢ م ، الموافق للثامن من رجب سنة ١٣٤٠ هـ . والمؤلف لا يخفي هدفه من وراء هذه السباحة اذ يؤكد في مقدمته انه إنما قام بوضع كتابه من أجل خدمة القضية العربية ولكي يعرف الحكام العرب بعضهم بعضاً ، فليس «في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع أن يقول : إنني أعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدى من تقارير العارفين وأخبار المترهبين عن الأغراض السياسية والتحزبات المذهبية ...» (١٢) . ويأسف الريحاني لهذا الجهل المطبق بأحوال الجزيرة العربية ، وأن تكون وزارة المستعمرات بالحكومة البريطانية هي الجهة الوحيدة العلمية والمتخصصة في هذا الميدان ، فهي تصدر نشرة بعنوان :

تستفي معلوماتها من تقارير وكالاتها السياسيين وما يكتبه الرحالة من العلماء الغربيين ، وتقوم بتصحيح هذه النشرة واعادة طبعها كل بضع سنوات . ومع ذلك ، فإن هذه النشرة لا تخلو من الأخطاء ، وتوزيعها مقصور على الدوائر الرسمية (١٣) .

والريحاني لا ينكر هذه المهمة السياسية التي ندب نفسه أو انتدب للقيام بها . فبالإضافة الى العنوان الرئيسي لرحلته : «ملوك العرب» ، فهو يذكر صراحة أن كتابه يحوي جانباً سياسياً : «وليس في الكتاب ، أدباً كان أو سياسة ، وصفاً أو نقداً إلا الحقيقة غير المجردة ...» (١٤) . وهو يقول بعد زيارته لكل من الحجاز واليمن وعسير : «هاهنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير . رغبت في خدمة الامام يحيى [بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصالحهم ، وبتقريب الانكليز من عقليّة الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين

الادريسي . فافترحت أن يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الآراء ويتعارفون ويتفقون . فأبى حضرته لأسباب أدركها ولا سبيل إلى تداركها . أن الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله . وهو طامع كذلك . على ما أظن . باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين . ورغبت في خدمة الملك حسين يعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن وعسير في البداة ولو بخبط من حرير . لا اعتقادي أن جلالة بمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منها ولا أظنه استحسبها لأسباب أدركها ولا سبيل إلى تداركها . ولم يعترف الامام بحبي ولا السيد الادريسي بأن جلالة الملك حسين هو ملك العرب . ولكنها مدا إليه يد الولاء والموازة فرفضها . من هو حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟^(١٨) .

وعلى الرغم مما يؤكد الريحاني في مقدمته من أنه قد قام بهذه المهمة الشاقة في التوفيق بين ملوك العرب منطوعا وخدمة للقضية العربية . إلا أن الشكوك قد قامت حوله وحول مهمته . وقد صورها المؤلف نفسه رواية عن الملك عبد العزيز عند أول مقابلة له معه : « ... قالوا لنا انك امريكي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية . وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريل تسعى لتحقيق دعوة الشريف . وقالوا غير ذلك . فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف ننتقيه . واذا كان فيه ما ينفع فنعرف أيضا كيف ننتفع . ونحن أعلم يا حضرة الأستاذ بمهمتك . بارك الله فيك »^(١٩) . وفي مقابلة أخرى يذكر الريحاني ان الملك عبد العزيز أطلعه على خطاب من الملك حسين وانه طلب رأيه فيه — يقول على لسان الملك عبد العزيز : « ما رأيك يا حضرة الأستاذ ؟ لا تقل لي ان لا تدخل لك بالسياسة وان سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط . « حنا » نفهم . ومريده على لحيته . وهو يسم بسنة الخلافة ... »^(٢٠) .

والحقيقة أن في مغامرة الريحاني ما يدعو إلى الشك والتأمل . فلقد قدم المؤلف إلى الجزيرة العربية في فترة حرجية من تاريخها الحديث . وبعد أن خيم اليأس على النفوس . بعد فشل الحسين واعلال بريطانيا بوعودها . واقتسامها — مع شريكها فرنسا — ما تبقى من تركة الرجل المريض . فهل قام الريحاني بما قام به بايعاز من بريطانيا التي كانت ترغب في إيجاد حل للأوضاع القائمة في الجزيرة العربية آنذاك ؟ قد يدعم هذا الرأي عدة أمور . أولا أن هذا المسلك لم يكن غريبا على السياسة البريطانية . وقد فعلت مثله في تمهيدها للثورة العربية حين أرسلت « صنائعها » — كما يقول خير الدين الزركلي — إلى أمراء الجزيرة العربية يقاضون هذا ويذاكرون ذلك^(٢١) . والأمر الثاني أنه من غير المعقول أن يقوم الريحاني بمحادثات السياسة مع الزعماء العرب بصفته الشخصية . إذ أنها محادثات تتجاوز المألوف في الزيارات العادية والمقابلات الصحفية الاستطلاعية إلى حد اقتراح العهود وإبرام الاتفاقيات بين الامارات العربية . وسرعان ما توطدت علاقات الصداقة بينه وبين وكيل بريطانيا السياسي في الحديدة^(٢٢) . وكان يرافقه في رحلته لمقابلة الادريسي في جيزان .

ومن ناحية أخرى . فقد يقال دفاعا عن الريحاني إنه لم يكن الوحيد الذي جذبه الأحداث السياسية في الجزيرة العربية آنذاك . فقد سبقه الكثيرون من الاخوة العرب الذين

أسهموا في الثورة العربية ، وكانوا شركاء في التخطيط لها وفي إشعالها . ومن أولئك مسلمون ومسيحيون على حد سواء ، قدموا الى الحجاز فرارا من مظالم الاتحاديين ، رأوا في الحسين « المنقذ الأكبر » فعاونوه في ميدان السياسة وفي ميدان الحرب . وكان منهم الوزراء والسفراء والقواد والمستشارون والصحفيون والاداريون الخ . ونذكر على سبيل المثال : يوسف ياسين وخير الدين الزركلي وقزاد الخطيب ومحب الدين الخطيب ونوري السعيد وكامل القصاب وسلم سرقيس وقسطنطين بني الخ . فلم يكن الريحاني ، اذن ، بدعا بين هؤلاء ، غير أنه قد وسع دائرة اتصالاته فشملت كافة الزعامات العربية ، وذلك تبعا لتغير الأحوال السياسية أثناء الفترة التاريخية التي قدم فيها . فبالإضافة الى تنصيب فيصل بن الحسين ملكا على العراق ، وانشاء اماره شرق الاردن لأخيه عبدالله ، فان نجم الحسين في الحجاز قد أخذ في الأفول ، وانفض عنه كثير من السياسيين العرب الذين كانوا ملتفتين حوله إبان الثورة (٤٣) .

وقد يقال أيضا ان الريحاني لم يأت في كتابه بما يخالف ما أعلنه من أهداف ومبادئ . فهو عربي المتزع ، يهيم في العروبة جنسا ولغة وتاريخا ، ويكاد يبلغ به هذا الحب حد التعصب . نرى ذلك كله ممثلا فيها نقله المؤلف في رحلته من أحداث وصور وأفكار ، اذ تكاد العروبة تتحول على يديه معيارا يحتكم اليه في الفصل بين الحسن والسيء أو الفضيلة والريزلة (٤٤) . ولم يكن حبا طارئا ، بل نتيجة تأمل وتفكير طويلين — شعور بالضياع سنوات طويلة في المهجر الأمريكي ، وقراءات واسعة في كتب الرحالة الغربيين الذين ساحوا في ارجاء الجزيرة العربية من أمثال بركهارت وبرتن ودافن ، وفي كتب المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن الأجداد الاسلامية من أمثال كرليل وواشنطن ارفنج ، واعجاب لاحد له بالتراث العربي القديم ولا سيما آثار أبي العلاء المعري : « ورحت أفانر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم » (٤٥) .

ومها يكن من أمر ، فان الريحاني قد استطاع ، رغم العقبات والمشاق ، أن يجترق الحدود لأول مرة بين تلك الامارات العربية الصغيرة المتنافسة ، وأن يجعل فكرته الى الأمراء والملوك العرب . وهو وان فشل في مساعيه السياسية ، فقد حقق نجاحا كبيرا في كتابة الرحلة ، ونسجبل تلك الحقبة الهامة في تاريخ الجزيرة العربية المعاصر .

والرحلة السياسية ، كما كتبها الريحاني ، نعط فريد ، إذ مزج فيها بين الماضي والحاضر ، بين التاريخ والسياسة ، وطبعها بطابعه الشخصي وفلسفته وأفكاره ، ولونها بخياله الشعري وأسلوبه الأدبي المتأنق المتدفق . ولعل أهم جانب فيها رسمه الذكي للشخصيات السياسية ، ومحاولة استبطان نوازعها وأفكارها . وهو يكتب عن الشخصية في مناسبات عدة ، ويحرص على نقل الموقف كما هو ، فلا ينسى ظروف المفاصلة وسماث الشخصية ، من ناحية الشكل والمهبة والسلوك . مسجلا النظرة والحركة والاشارة . ويستخدم العبارات القصيرة الرشيفة اللوحية . وفي كثير من الأحيان يحاول تقرب الحوار من الواقع باستخدام كلمات الشخصية أو « اللازمة » التي ترددها . وهو بارع في التصوير الدرامي ، ولكنه واقعي ، وقد يكتب عن انطباعاته بطريقة صريحة مباشرة .

ان كتاب «ملوك العرب» عمل ابداعي في بنائه وأسلوبه وتأثيره . وقد استحوذ على اعجاب الكثير من النقاد والباحثين . يقول عنه جورج غريب : «أقل ما تصاب به أمام هذا الكتاب : الذهول . فالربيعاني فيه أول فاتح في عهد انغلاق المشرق على نفسها . وأول مشرع للأبواب في وجه الزمن . وهوبين انتقاله من ملك الى ملك تقوم الدنيا وتقع على جنباته ، لكثرة ما يؤرخ ويصف ويحلل متجاوزا حدود التاريخ والوصف والتحليل الى مناحي الفلسفة والفن والأدب والاجتماع ، فالسرد على ريشته محلول اللجام والفكر مرغى الأعنة ، بلف انتاجه بعلم صحيح وآراء مقرونة بالبراهين ، ومشاهدات مشفوعة بالتفحص لخفايا الأمور . وأدب يعلو بالنسق القصصي الى أوج التعبير»^(٥٦) .

ذكرنا أن الطابع السياسي يغلب على رحلة الربيعاني . أما رحلة خير الدين الزركلي : «ما رأيت وما سمعت» فيغلب عليها الطابع العلمي ، ولو أن قدوم كاتبها الى الحجاز كان أشبه باللجوء السياسي . يقول الزركلي إنه قر من دمشق عقب هزيمة السوريين في موقعة ميسلون سنة ١٩٢٠ م ، وتوجه الى مصر عن طريق فلسطين . وقد حكم عليه المختلون الفرنسيون غيابياً بالاعدام مع مجموعة أخرى من الأحرار السوريين ، منهم كامل القصاب وشكري القوتلي وتوفيق اليازجي . وبعد أن أقام في القاهرة نيفاً وشهرين توجه الى الحجاز بناء على دعوة من الشريف الحسين . وكان الزركلي قد كتب اليه خطاباً من مصر يعلمه بأحواله ويستفسر عما يتوي الشريف عمله لمقاومة الفرنسيين . ويقول الزركلي إنه سافر الى الحجاز بجواز سفر حجازي يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ م الموافق ٦ محرم سنة ١٣٣٩ هـ^(٥٧) . وقضى في ضيافة الحسين أكثر من ثلاثة أشهر^(٥٨) ، رجع بعدها الى مصر في يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ م ، الموافق ١٣ جمادي الأولى سنة ١٣٣٩ هـ^(٥٩) .

ورغم أن الزركلي إنما قدم الى الحجاز ، كما يبدو من خطابه ، مستنجداً بالشريف لنصرة سوريا والوقوف بجانبها في محنتها ، الا أننا لا نراه يذكر شيئاً عما دار بينه وبين الحسين في هذا الموضوع ، اللهم الا ما جاء في فصيحة ألفاها أمامه في إحدى المناسبات ، يذكر فيها ما تكابده سوريا من ويلات الاحتلال الفرنسي ، ويستحثه على النهوض لنجدة سوريا ، يقول فيها :

يا ابن بنت النبي أوهقنا العف ،	فجرد لـه الحمام الرقبـا
بالذي شاد «ككبـا» و «ثيرا»	وأحاط الهداة «بيشاه عنيـا
بالصفا ، بالحجون ، بالركن ، بالكعبة .	لب الصريخ واقض الحقوقـا
إن في الشام أمة لا تطبق الضيم .	تأسى لها العـل أن تطبقـا
أوسموها تعلقة ووعودا	وسقوها من الخداع رحيـا
أنذرونا بالموت ، ما أعذب الموت	إذا كان للحياة طريقـا ^(٦٠)

وفيما عدا هذه القصيدة لا نجد في الحلقة ما يدل على أن الزركلي قد فاتح الحسين أو فاضحه في أمر سوريا ، مع أنه أقام في «دار الحكم» وكان يجتمع بخلالته ساعتين كل ليلة طيلة مدة اقامته التي تزيد على السبعين يوماً^(٦١) . ومع ذلك ، فإن الزركلي قد أفاد من هذه الإقامة الطويلة بخوار الحسين . فكتب عنه وعن أولاده الأربعة — علي وفصل وعبدالله وزيد —

صفحات مهمة لا يستغني عنها الباحث في تاريخ هذه الفترة ، كما أُلِّم بتاريخ الثورة العربية وما انتهت إليه من أحداث وتطورات معروفة . أما معظم صفحات الرحلة فقد خصصها المؤلف للحديث عن رحلته من مكة الى الطائف^(١١) . وفيما نرى الزركلي العالم المحقق الذي لا يكتفي بما يشاهده أو يسمعه بل يرجع الى المصادر القديمة للتثبت والتصويب والمقارنة . وهو في هذا الجزء رائد ولا شك لمن أتى بعده من الباحثين المهتمين بتاريخ القبائل وتحقيق المواضع .

لقد شغل الزركلي في رحلته بالتاريخ والآثار وتقاليده البدو وآدابهم عن الخوض في السياسة . ولعله كان يائسا من قدرة الحسين على تغيير الأحوال في سوريا . أو نقض ما انفتت عليه الدولتان العظميان : بريطانيا وفرنسا . وهو يعبر عن خيبة أمه هذه مثملا بقول الشاعر :

وارحمنا للغرب في البلد الشاذح مــــا إذا بنفسه صنعنا
فأرق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعنا^(١٢)

بل لعل ظروفه الخاصة قد حالت بينه وبين تحديد موقفه واضحا صريحا كما فعل الريحاني . فالزركلي لم يكن سوى أديب مناضل . فرجيته وحريته من بطش المستعمر . وهو بعد ذلك من رعايا الدولة الهاشمية أثناء حكمها القصير في سوريا . فعلاقته بالحسين أشبه بعلاقة المواطن بول أمه . ولا يستبعد أن يكون جلالة قد أسر إليه ببعض الأمور . وأسند إليه بعض المهام أثناء زيارته تلك . يدلنا على ذلك ما ذكره الزركلي في ترجمته الشخصية في «الأعلام» إذ يقول انه بعد عودته من الحجاز الى مصر تنجس بالجنسية العربية في الحجاز سنة ١٩٢١ . وأن الملك حسين انتدبه لمساعدة ابنه عبدالله أثناء توجهه الى شرقي الأردن . وعند تأسيس الحكومة الهاشمية في عمان كان الزركلي من أوائل المعينين فيها مفتشا عاما للمعارف ثم رئيسا لدبوان رئاسة الحكومة من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣ م^(١٣) .

الرحلات الصحفية :

ونقصد بها ذلك النوع من الرحلات القصيرة التي يقوم بها بعض الصحفيين والأدباء العرب الى البلاد بين الحين والآخر . لتغطية أخبار بعض المناسبات المهمة أو مجرد الاستطلاع . وقد تم هذه الزيارات بناء على دعوة رسمية من الحكومة ، أو على مبادرة شخصية من الكاتب نفسه . وربما صادفت الزيارة موسم الحج ، فتمكن الكاتب من أداء الفريضة ، وجمع بذلك بين الواجب الديني والعمل الصحفي .

ولعل أول مناسبة مهمة استقطبت اهتمام الصحفيين ، في العهد السعودي ، كانت انعقاد المؤتمر الأول للعالم الإسلامي بمكة المكرمة سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) استجابة لدعوة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود . لقد شهد ذلك المؤتمر عدد من الصحفيين العرب ، من بينهم السيد محمد علي حسن — صاحب جريدة ومطبعة نهضة الشرق ومتدوب جريدة اللواء المصري . لسان حال الحزب الوطني — الذي قام بالكتابة العامة في المؤتمر ، ولخص أعماله في

كتب بعنوان : «صحيفة موجزة بأعمال مؤتمر العالم الإسلامي الأول بمكة المكرمة عام ١٣٤٤ هـ» ، وضمنه نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك عبد العزيز في افتتاح المؤتمر ، وبيان جلالاته الموجهة الى المؤتمرين^(٦٥) . ويغلب الطابع الرسمي على الكتاب . ولا نستطيع أن نسميه : رحلة ، ولكنه كان البداية للرحلات الصحفية التي لن تكني بتغطية الأخبار ، بل ستحاول أن تصور بعض جوانب الحياة العامة في البلاد ، وأن تعبر عن موقف أو رأي معين . ففي سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م ، نشر السيد محمد شفيق أفندي مصطفى كتابا بعنوان : «في قلب نجد والحجاز» ، وصفه بأنه : «سلسلة مقالات سياسية اجتماعية دينية ، تتضمن حقائق ومشاهدات في قلب شبه الجزيرة العربية ، لم يسبق لرحالة تدوينها قبل الآن» ، وقد نشرت تباعا بحريدة السياسة^(٦٦) . ويقول المؤلف إن النهضة الجديدة في العهد السعودي . وبعد توحيد القطرين العربيين — نجد والحجاز — في حكم واحد . قد حفزت الكثيرين الى استطلاع الأحوال والوقوف على الحقائق عن كتب . ويقول ان «سمو الأمير سعود ، أثناء زيارته لمصر آنذاك . قد دعا المفكرين المصريين لزيارة بلاده «واستطلاع شؤونها ونشر الحقائق المجردة عنها للناطقين بالصاد ممن لا يزالون يجهلون عنها كل شيء»^(٦٧) .

وفي سنة ١٩٣٠ م قام الأديب المعروف إبراهيم عبد القادر المازني برحلة الى الحجاز . أسماها : «رحلة الى الحجاز» . لم يذكر فيها أسباب الزيارة ، ولكنه أشار الى الاحتفال بمبايعة عبد العزيز ملكا على الحجاز^(٦٨) ، كما تحدث عن المأدبة التي أقامها «الأمير فيصل» نائب الملك في قصر الكتندرة . وحضرها المؤلف مع رفاقه من الوفد المصري . كما حضرها المعتدون الأجانب في جدة : «وعُطِبَ فُزَادُ بِلْكَ حِمْرَةٍ فِي عَتَامِ الْمَأْدَبَةِ لِمُنَاسَبَةِ انْقِضَاءِ عَامٍ عَلَى مَبَايَعَةِ ابْنِ السُّعُودِ مَلِكًا عَلَى الْحِجَازِ ، فَبَيْنَ مَا قَامَتْ بِهِ الْحُكُومَةُ السُّعُودِيَّةُ مِنَ الْإِصْلَاحِ ، وَمَا تَفَكَّرَ فِيهِ مِنْ وَجُوهِ الْمَخْتَلَفَةِ»^(٦٩) . ويذكر المازني من رفاقه القادمين معه من مصر : أحمد زكي باشا . شيخ العروبة ، ونيه بلك العظمة ، وخير الدين الزركلي^(٧٠) . وفي كتاب محمد حسين هيكل : «في منزل الوحي» ما يلقي بعض الضوء على رحلة المازني ، فقد أشار هيكل الى أن الحكومة السعودية قد دعت ، في مسهل شتاء ١٩٣٠ م ، الصحافة المصرية لزيارة الحجاز بمناسبة تنويع الملك عبد العزيز ، وأن الدعوة قد وجهت اليه أصلا كممثل بحريدة السياسة ، فاعتذر عنها ، لظروف عمله ، وأتاب عنه صديقه وزميله الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني^(٧١) . ويقول المازني في رحلته إنه قد قام بهذه المهمة الصحفية ، وأنه كان وزملاؤه الصحفيون العرب يبعثون «التلغرافات» من الحجاز الى مكاتب صحفهم في مصر^(٧٢)

أما عبد الوهاب عزام فقد زار البلاد السعودية أكثر من مرة ، وكتب عنها في رحلاته «الأولى» و«رحلاته» «الثانية» — ففي الأولى قدم الى الحجاز ضمن أعضاء بعثة جامعة فزاد لأداء فريضة الحج سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م^(٧٣) ، وفي الثانية قدم كوزير مفوض للحكومة المصرية في جدة سنة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م . وقد تمكن في المرة الأخيرة من التحول في منطقتي الحجاز ونجد ، وتدوين ملاحظاته عنها — يقول انه قطع الطريق من جدة الى المدينة المنورة

تسع مرات بالسيارة غير مرتين بالطائرة^(٧١) — بينما لم تتمكن زيارته القصيرة الأولى الا من وصف مناسك الحج وصفا سريعا مقتضيا . وتسجيل انطباعاته عن بعض الآثار الإسلامية التي وفف عليها .

ولا يختلف كتاب الأستاذ علي الطنطاوي : «من نفحات الحرم» عن كتاب عبد الوهاب عزام من حيث كونه سجلا لرحلات متعددة . قام بها الكاتب في فترات متفرقة الى الأراضي المقدسة ، أقدمها وأهمها تلك الرحلة التي قدم فيها لأول مرة لأداء فريضة الحج مع الوفد السوري سنة ١٩٣٥ م . مفتتحا بها طريق الحج البري للسيارات .

ورحلة بنت الشاطئ : «أرض المعجزات — رحلة في جزيرة العرب» سنة ١٩٥١ م ، كانت وليدة رغبة متأصلة في نفس الكاتبة لزيارة الأراضي المقدسة ، ولو أن الصدفة قد لعبت فيها دورا كبيرا . تقول : «في مسهل عام ١٩٥١ ، تلاقى جمع من اسانذة جامعة القاهرة وطلابها ، يتحدثون في أمر عطلة نصف العام التي كانت تدنو إذ ذاك . فاعتار فريق أن يذهب الى السودان لتعرف الى اخواننا أبناء الجنوب ، وأثر آخرون أن ينجسوا الى الحجاز معتمرين زائرين . وهي رحلة كانت حديرة بأن تسوي كل المسلمين منا ، وتجذب اليها دارسي العربية وأدبها والإسلام وتاريخه . لكن قيمة الاشتراك في الرحلة حددت بمبلغ خمسة وأربعين جنيا ، فحال هذا الرقم دون أكثر الراغبين . ولم يبق منهم سوى عشرة» . وتقول المؤلفة إن برنامج الرحلة كان في بادى الأمر مقتصرا على جدة ومكة والمدينة وأداء العمرة والزيارة والطواف بالمشاهد التاريخية ، غير أن «الأمير» فيصل آل سعود قد علم بمشروعهم فسلمهم برعايته ومكنهم من زيارة مناطق أخرى من المملكة لم تخطر على بال ، فوصلوا الى نجد والذهناء وشرقي الجزيرة العربية حتى الأحساء ومنطقة البحرين . وتقول أيضا إنه حين وصولهم الى جدة فوجئوا بإبلاغهم أنهم ضيوف حضرة صاحب الجلالة عاهل الجزيرة طوال إقامتهم^(٧٢) .

إن هذه الرحلات تختلف بطبيعة الحال من حيث تناول الموضوع والفكرة والأسلوب ، تبعاً لاختلاف كتابها وظروفهم وتباين مشاربهم وأذواقهم . وقد تقترب من رحلات الحج والزيارة في وصف المناسك والتعبير عن التأملات الروحية ، كما يقترب بعضها من الرحلات العلمية في الاهتمام بالمواضع والقبائل واللهجات الخ . ولكن يجمعها ، مع ذلك ، الطابع الصحفي في الميل الى السرعة والاستطراد . وكثير منها قد نشر متجاً في صحف سبارة تخاطب القارئ العادي وتستجيب لرغباته في حب النقل والتلوين والاثارة . وقد عبر الأمير شكيب أرسلان عن هذا الطابع الصحفي في رحلته «الارتسامات اللطاف» عندما ذكر أنه كان ينشرها مقالات متفرقة في جريدة «الشورى» مما اضطره الى استطرادات لا حذفا والاستجابة الى دوف القارئ . يقول : «ومن حيث اني كنت أصدرها [الرحلة] من وقت الى آخر في جريدة سبارة . كانت هيئتها أقرب الى أسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب ، لأن الكاتب إذا كتب بين اسبوع وآخر متأثرا بالعوامل المختلفة ، ملاحظا المتجددات اليومية ، مراعيها حال قرائه الروحية ، ذهب به الاستطراد كل مذهب . وشردت به شجون القول فشرق

وإذا كان أرسلان قد أراد أن يفيد قراءه بخشد معلومات كثيرة متنوعة — جغرافية وتاريخية واجتماعية ولغوية وأدبية — فإن المازني أراد أن يسليهم وأن يشيرهم بوصف بعض المواقف أو العادات الاجتماعية التي تبدو غريبة في نظره . فبالغ في رسمها حتى غدت «كاريكائية» مضحكة . وما أكثر هذه الصور في رحلة المازني . وهي تنسجم مع طبيعته المرحه . وفي ميله الى النقد عن طريق التهويل في الوصف والسخريه .

ومن الرحالة الصحفيين من يقع في الخطأ وهو ينشد الاغراب والطرافه . وخطأه اما نتيجة الجهل أو السذاجة المتناهية أو هما معا . كقول محمد شفيق مصطفى . في رحلته : «في قلب نجد والحجاز» . إن فيصل الدويش هو زعيم قبيلة الأرتاوية وإن سلطان بن بنعاد هو زعيم قبيلة الغضط (٧٧) . ومن المعروف أن الأرتاوية هجرة لقبيلة مطير . والغضط هجرة لعنية (٧٨) . ويقول في موضع آخر تحت عنوان : «عقائد التجديدين في الحياة والخلود» : إن مما يستحق الذكر أن أهل نجد يعتقدون ان التجديدي إنما خلق لعبادة الله وطاعة شريعته وإن أجله محدود وإن هناك بعثا بعد الحياة الدنيا ، ويقارن بين ما يسميه «عقائد التجديدين» وبين عقائد الفراعنة في البعث (٧٩) . وهذا كلام لا يحتاج الى تعليق . لأنه يدل على غفلة متناهية من الكاتب . فذلك عقيدة المسلمين جميعهم وليست عقيدة التجديدين وحدهم . وهو يكتب عن «التجديدين» وكأنه يكتب عن قبائل بدائية من افريقيا أو الشرق الأقصى .

والى جانب الاستطراد والاثارة ، فإن الرحلة الصحفية تتميز بطابعها الاعلامي في الكشف عن الحقائق المجهولة ، والاشادة بما وصلت اليه البلاد من نهضة وتطور . وقد كانت بلادنا حتى عهد قريب تنقصها وسائل الاعلام الفعالة النشطة التي تستطيع ان تنقل الصورة الحقيقية للحياة في المملكة خارج الحدود . لهذا فقد قام هؤلاء الصحفيون والأدباء . حسب امكانياتهم . بهذه المهمة . وتمكنوا من نقل بعض الجوانب المشرقة التي شاهدوها الى قرائهم في الوطن العربي . ومن هذه الجوانب التي توقفوا عندها طويلا جانب الأمن ونهضة التعليم وتطور وسائل الحياة الحديثة في البلاد . وقد عبرت بنت الشاطئ عن دهشنا للتقدم الهائل الذي وصلت اليه المملكة سنة ١٩٥١ م . فالطائرة قد حلت محل الحمل في الربط بين اطراف الجزيرة المتباعدة . والرحلة بين جدة والظهران لم تستغرق سوى اربع ساعات ، وتنفذ المؤلفه متعجبة لتلك الظفرة ، وقد جلست بجوارها في الطائرة احدى البدويات :

«هكذا من الناقة الى الطائرة في وثبة واحدة ؟

هكذا من الهودج الى صالون داكوتا وبريستول ؟

هكذا من ماء الأمطار والعيون الى شراب الأناناس والكوكاكولا !

يا لها من وثبة عاتية ، لم تمر بمراحل التطور التي مررتا بها ، فما عرفت الدهناء من قبل العربية أو السيارة . ولا رأت حتى اليوم . قطارا يحوس خلالها ويمر بين كتبائها ووهادها» (٨٠)

ولكنها «أرض المعجزات» التي تقول عنها بنت الشاطي «انها قد غيرت بالإسلام قبل أربعة عشر قرناً تاريخ العالم». وقررت «مصائر دول وشعوب وعروش وتيجان وحضارات وديانات». واليوم يكتب لها أن تدفع سيل الزيت دافقاً كالدم الحار في شرايين الدنيا فتشارك في تقرير المصير لعالم اليوم» (٨٩).

وفي رحلتها الثانية سنة ١٩٧٢ م. تدهش بنت الشاطي لما وصلت اليه الفتاة السعودية من تقدم كبير في مضمار العلم. وقد عهدتها في زيارتها الأولى سنة ١٩٥١ م جاهلة خاملة متخلفة تقبع وراء الأسوار. تقول:

«وتركت الخزيرة، من عشرين سنة، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات. المدينة المصرية غزت بيوت نجد والأحساء، فسمحت للضوء والسيما والراديو بدخول أجنحة الحرم ولم تسمح بدخول الكتاب. ومضى جبل واحد فحسب. فتحت فيه ابواب العلم الموصدة في وجوه البنات. فاجتزن المراحل الى التعليم العالي. وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بحدة). يوشكن أن يسمن مرحلة الليسانس. ويتحقق ما لم يعمد عهد العاهل الراحل على الخوض فيه. فتركه امانة لعهد ابنه فيصل. الذي جعل لتعليم البنات في المملكة رياضة خاصة تعرض ما فات. وتصل ما انتقص من ماضي هذه الأمة، يوم كانت المرأة تشارك في صنع تاريخها مشاركة ذات بال. وتفترض وجودها الفعال المؤثر على حياة قومها في الجاهلية والإسلام» (٩٠).

الهوامش والمصادر

- (١) انظر: شوقي ضيف، «الرحلات»، ص ٦ - ٨.
- (٢) يقول الخاسر ان الرحلات من أهم التواحي الثقافية العربية. وهي لا تزال في حاجة الى اهتمام الباحثين. وقد حاولت مجلة «العرب» الانجاء في هذا السيل. مجلة العرب، ج ٦، ص ٤. ذو الحجة ٨٩ هـ/ فبراير ٧٠ م. ص ٤٧٣. وانظر ايضا: مجلة العرب، ج ٥، ص ٩. ذو القعدة ٩٤ هـ/ يناير ٧٥ م. ص ٣٢١ - ٣٣٦.
- (٣) أدب الرحلة عند العرب، (المجلة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ م).
- (٤) شوقي ضيف: المصدر نفسه، ص ٧١.
- (٥) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي - تعريب صلاح الدين عثمان (خة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣). القسم الأول ص ٣٤٩ - ٣٥١.
- (٦) المصدر السابق، القسم الأول، ص ٤٢٨.
- (٧) المصدر السابق، القسم الثاني، ص ٧٢٨.
- (٨) محمد أديب غالب: «طرابلس الشام في الرحلات العربية»، مجلة العرب، ج ٧، ص ٧. محرم ٩٣ هـ/ فبراير ٧٣ م. ص ٥٥٣.
- (٩) المصدر السابق، ص ٥٥٤.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٥٥٦.
- (١١) انظر: كراتشكوفسكي، المصدر نفسه، القسم الثاني، ص ٧٥٣. ويمكن ان نقرب مثالا على

- ذلك بكتاب ابن معصوم : «سلافة العصر في بحاسن أعيان العصر» .
- (١٢) أنظر : حمد الحامس : «في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات الى الحج» . مجلة العرب . ج ٥ ، ٦ ، ٩ . القعدة ٩٤ هـ / ٧٥ م . ص ٣٢١ - ٣٢٦ .
- (١٣) شوقي ضيف . المصدر نفسه . ص ١٥ .
- (١٤) كراتشكوفسكي . المصدر نفسه . القسم الأول . ص ٢٦٠ .
- (١٥) المصدر السابق . القسم الأول . ص ٣١٧ - ٣١٨ .
- (١٦) لقد غير غير الدين الزركلي أحسن تعبير عن طبيعة فن الرحلة عندما سمى رحلته الى الحجاز . سنة ١٩٢٠ م : «ما رأيت وما سمعت» . وهو يقول فيها :
- «... وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت نقل الحدث لا المورخ . والمصور لا الكاتب . متحرراً براد الحقيقة كما هي عارية مجردة . ولو استطعت لأخذت بيد القاري . أريه ما وقعت عليه عيناى . وأسمعه ما وحه أذناى . عل أن الحر قد يعني عن الاختيار . وفي الرواية ما قد يعني عن المشاهدة» .
- ما رأيت وما سمعت (الطبعة العربية ومكنتها بمصر . ط ١ . القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م) . ص ١١١ .
- (١٧) حمد الحامس : «في رحاب الحرمين - من خلال كتب الرحلات الى الحج» . مجلة العرب . ج ٥ ، ٦ ، ٩ . ذو القعدة والحجة ٩٤ هـ / يناير ٧٥ م . ص ٣٢١ - ٣٢٢ .
- (١٨) المصدر السابق . ص ٣٢٢ .
- (١٩) أنظر مقائلته : «كتب الرحلات» . مجلة العرب . ج ٩ . ص ٦ . ٩٢ هـ / ٧٢ م . ص ٧٢٦ - ٧٥١ . ويقول الأستاذ حمد الحامس إن الكتابي لم يبين ما يتعلق من هذه الرحلات بالحجاز - أنظر : «أحوال في الغرب العربي» مجلة العرب . ج ٩ . ص ٧ . ٩٣ هـ / ٧٣ م . ص ٦٤١ - ٦٤٢ .
- (٢٠) الزركلي : المصدر نفسه . ص ٤٧ - ٤٨ .
- (٢١) أنظر فؤاد حمزة : «البلاد العربية السعودية (مطبعة أم القرى . مكة المكرمة . ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ م)» . ص ٧٨ .
- (٢٢) لعنه من المفيد أن نورد هنا شيئاً باخوارات المهمة في تاريخ هذه الوحدة الملحمية التي كان يظنها المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود : فتح الرياض : ١٩٠٢ . ضم الخرج والحمل والشعب والوشم : ١٩٠٢ - ١٩٠٣ . فتح القصيم : ١٩٠٣ - ١٩٠٦ . القضاء على الثورات الأهلية : ١٩٠٩ . فتح الأحساء : ١٩١٣ . التوسع الى تربة والخزعة : ١٩١٩ . ضم عسير : ١٩٢١ . فتح حائل والخوف : ١٩٢١ . الاستيلاء على الحجاز ١٩٢٤ - ١٩٢٥ . بسط الخرابة على تهامة : ١٩٢٦ . القضاء على الفتن الداخلية : ١٩٢٨ - ١٩٣٢ . أنظر فؤاد حمزة : المصدر نفسه . ص ١٩ - ٢٠ .
- (٢٣) وفي اواخر العهد الزكي كتب محمد كرد علي رحلته التي أسماها : «الرحلة الأنثوية الى الأصقاع الحجازية والشامية» . وهي في وصف رحلة أنور باشا . وكيل القائد الأعظم وناظر الخريبة في الدولة العثمانية - الى المدينة المنورة وسورية وفلسطين - ونفع في حوالي ثلاثمائة صفحة . وقد طبع في بيروت سنة ١٩١٦ .
- (٢٤) مع أن إبراهيم رفعت قد سبق البنتوني في رحلاته الأربع الى الحجاز . كما رأينا . إلا أنه لم ينشر ما سجله عن تلك الرحلات الا بعد ظهور كتاب البنتوني عمدة طوبلة . سنة ١٩٢٥ . لذلك نراه يرجع الى البنتوني في بعض المواضع من كتابه .
- (٢٥) نشرت منجمة في مجلة المنار . في آخره بين ١٩ . ٢٠ سنة ١٩١٦ - ١٩١٧ م وسنة ١٩١٧ - ١٩١٨ . ثم جمعت في كتاب . مع رحلاته الأخرى بعنوان : رحلات الإمام محمد رشيد رضا - جمعها وحققها الدكتور يوسف إيش . (المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ط ١ . بيروت

- (٢٦) التواريخ التي نذكرها هنا لا تمثل تاريخ الطبع . بل تاريخ قيام المؤلف بالرحلة . ولا يغوتنا أن نشير في هذا الموضع الى رحلة الأستاذ علي الخطاطوي التي قام بها الى الحجاز مع الوفد السوري سنة ١٩٣٥ . وقد نشرت سنة ١٩٤٠ م . وطبعت مرة أخرى ضمن مقالات له أخرى في نفس الموضوع في كتاب : «محات الخرم» — (مطابع دار الفكر ، ط ١ دمشق سنة ١٩٦٠ م) .
- (٢٧) انظر كتاب :

ويقول المؤلف في هذا الكتاب عن الرحالة الغربيين في اوائل القرن العشرين ، إنهم قد أكملوا العمل الذي بدأه الرحالة السابقون ، ولكنهم كانوا يتجهون الى الحواشي الغريبة ، ولم يكنوا رومانتيكيين كآسلافهم . فلا زال أمامهم جزء كبير من الجزيرة العربية لم يحقق عندها من التواحي الجغرافية والجولوجية وغير ذلك .

- (٢٨) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي (المطبعة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م) . ص ٣٠١ — ٣٠٤ .

(٢٩) المصدر السابق . ص ٣٠٠ .

- (٣٠) انظر أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (ط ٢ ، بيروت ١٩٦٠ م) . ص ١٤٦ — ١٥٧ .

- (٣١) انظر كتابه : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» (مطابع صادر ربحاني ، ط ٣ ، بيروت ١٩٥١ م) . ج ١ ، المقدمة ، ص ١٥ .

(٣٢) المصدر السابق . ج ١ ، المقدمة ، ص ١٨ .

- (٣٣) في منزل الوحي (مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٧ م) . ص ١٤٤ . لقد كان هيكلي في ذلك الوقت من المعجبين بالرعاة والمفكرين الغربيين ، ويسبارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) من أبطال ألمانيا في القرن التاسع عشر ، الذين استطاعوا أن يخفوا لها الوحدة الألمانية .

- (٣٤) مرآة الحرمين — أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) . المقدمة ، ص ٣ .

(٣٥) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٣ — ٤ .

- (٣٦) الرحلة الحجازية (مطبعة الخيرية ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٢٩ هـ) . المقدمة ، ص ٥ .

(٣٧) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٥ .

(٣٨) المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ٦ .

- (٣٩) انظر ، مثلا ، الصفحات : ٦٩ — ٧٣ ، ٩٤ — ١٠١ ، ١٠١ — ١٣٣ ، وانظر أيضا العناوين الآتية : «كيف تحج أيها المسلم — الأدعية الماثورة من الابتداء في الحج الى النهاية منه» . ص ١٧٢ — ١٧٦ ، «محرمات الاحرام» . جدول بمناسك الحج على المذاهب الأربعة ص ١٧٦ — ١٧٩ .

- (٤٠) يقول كراتشكوفسكي ان هذا الضرب من الرحلات ، الذي يؤلف بناء على تكليف أمير كبير أو ليل عطفه ، كان مألوفاً في العصور الماضية . ومن هذه الرحلات رحلة ابن الجيعان : «القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف» ، والتي وصفت فيها رحلة السلطان قابچاي الى الشام . وكان المؤلف ضمن حاشية السلطان . ويقول كراتشكوفسكي : «وقد استمر هذا الضرب من الرحلات مزدهراً لعدة قرون . بل اننا نلتقي به في القرن العشرين في وصف مشابه ، ولكنه يقوم على اساس مخالف كل المخالفة ، أعني رحلة البتاتولي التي رفعها الى خديو مصر عباس حلمي» . المصدر نفسه ، القسم الثاني ، ص ٤٧٦ .

- (٤١) انظر مثلا الى نماذج من تقارير ابراهيم رفعت ، وهي قبل من كثير : «تذكر السفر في شركة البواخر»

- (جد ٢ ، ص ١٦٥) ، جدول بما لكل عامل في الحصل من الخيال والحياء وغيرها (جد ٢ ، ص ١٦٦) الخ . ولقد كان بإمكان المؤلف أن يفرد قسما خاصا في آخر الكتاب يجمع فيه ما يريد الخلقه من تقارير ووثائق ومستندات وما الى ذلك .
- (٤٢) في منزل الوحي ، تقديم ، ص ١٠ .
- (٤٣) المصدر السابق ، ص ١٠ .
- (٤٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .
- (٤٥) ملوك العرب ، المقدمة ، ص ١٨ .
- (٤٦) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٢٢ — ٢٣ .
- (٤٧) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ١٩ .
- (٤٨) المصدر السابق ، جد ١ ، ص ٣٦٧ .
- (٤٩) المصدر السابق ، جد ٢ ، ص ٤٢ .
- (٥٠) المصدر السابق ، جد ٢ ، ص ٦٣ .
- (٥١) ما رأيت وما سمعت ، ص ١١٤ .
- (٥٢) ملوك العرب ، جد ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٥٧ وما بعدها .
- (٥٣) انظر حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين (مطبعة بنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ القاهرة ١٩٣٥) ، ص ٢٤٠ .
- (٥٤) مستحدث عن ذلك بالتفصيل في القسم الذي ستخصصه للحديث عن الرحالة ومواقفهم .
- (٥٥) ملوك العرب ، المقدمة ، ص ١٢ .
- (٥٦) جورج غريب : أدب الرحلة — تاريخه وأعلامه (دار الثقافة ، ط ١ ، بيروت ١٩٦٦ م) ، ص ١٠٥ .
- (٥٧) ما رأيت وما سمعت ، انظر ص ٣ — ٢٧ .
- (٥٨) المصدر السابق ، ص ١١١ .
- (٥٩) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .
- (٦٠) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
- (٦١) المصدر السابق ص ١١١ .
- (٦٢) من ص ٢٧ الى ص ١٠٩ ، وانظر حديثه عن الياضية — ثقافتها وأدبها ، من ص ١٣٧ الى ص ١٨٦ . في حين أن مجموع صفحات الرحلة لا يتجاوز ١٩٠ صفحة .
- (٦٣) ص ١٠٨ .
- (٦٤) انظر ترجمته في الأعلام ، جد ١٠ (المستدرك) ، ص ٢٥٧ .
- (٦٥) صحيفة موجزة — (مطبعة نفثة الشرق ، الاسكندرية ، سنة ١٣٤٥ هـ) .
- (٦٦) لم طبع بعد ذلك في مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م .
- (٦٧) في قلب نجد والحجاز ، ص ٧ .
- (٦٨) رحلة الى الحجاز (مطبوعات الحديد ، القبة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٣ م) ، ص ٧ .
- (٦٩) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
- (٧٠) المصدر السابق ، ص ١٠ — ١١ .
- (٧١) في منزل الوحي ، ص ٣٣ — ٣٤ .
- (٧٢) رحلة الى الحجاز ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .
- (٧٣) رحلات عبد الوهاب عزام — الرحلات الأولى (مطبعة الرسالة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٠ م) ، انظر

مقدمة الطبعة الأولى .

(٧٤) رحلات عبد الوهاب عزام — الرحلات الثانية (مطبعة الرسالة . ط ١ . القاهرة ١٩٥١ م) ، ص ٣٦٣ .

(٧٥) أرض المعجزات — رحلة في جزيرة العرب (سلسلة «اقرأ» . دار المعارف ، ط ٣ . القاهرة ١٩٦٩ م) ، ص ٧ — ٩ .

(٧٦) الارتسامات (مطبعة النار ، ط ١ . القاهرة ١٣٥٠ هـ) ، ص ٤ . يقول ارسلان انه عدل بعد ذلك عن نشر مقالاته في جريدة الشورى . لأن ذلك يأخذ وقتا طويلا ولا ينهي في أقل من ستين أو ثلاث . وانصرف الى اكمال التصنيف فورا — فكان ما نشر في «الشورى» نحو الثلث . وما لم ينشر في الشورى ولا في جريدة غيرها نحو الثلثين . ص ٤ — ٥ .

(٧٧) في قلب نجد والحجاز . ص ٤١ .

(٧٨) انظر أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته (المطبعة العلمية ليوسف صادر ، ط ١ ، بيروت ١٩٢٨) ص ٤١٤ — ٤١٤ .

(٧٩) في قلب نجد والحجاز ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٨٠) أرض المعجزات ، ص ٦١ — ٦٢ . لقد عرفت الدهاء السيارة قبل رحلة بنت الشاطي . بوقت طويل . اذ يشير فزاد حمزة في كتابه : قلب جزيرة العرب (المطبعة السلفية ، ١٩٣٣) انه اجتاز الدهاء في طريقه من الكويت الى الرياض بالسيارة يوم ١٨ يولييه سنة ١٩٣٢ — انظر الحامش ، ص ٣٢ . ولم يكن فزاد حمزة أول من خاض تلك المغامرة . ومعنى هذا ان السيارات كانت معروفة وممتشرة في البلاد السعودية قبل سنة ١٩٥١ ، خلافا لما تزعمه بنت الشاطي .

(٨١) المصدر السابق ، المقدمة .

(٨٢) أرض المعجزات ولقاء مع التاريخ (دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ م) ، ص ١٨٠ — ١٨١ .